محاضرة رقم ٨

ثانيا: الوثائق (*Documents*)

تلعب الوثائق دوراً مهماً منذ اقدم العصور وحتى اليوم ، تراكمت على مر الدهور بكميات هائلة مما تركة لنا الاقدمون والسابقون من تراث حضاري وثقافي لا يمكن في اي حال من الاحوال تقدير حجمه اليوم ، لكن مما تجمع علية الشعوب متعددة الحضارات والثقافات هي النظرة المقدسة الى ذلك التراث .

التكوين التاريخي للوثيقة :-

منذ أقدم العصور وحتى اليوم, تراكمت على مر الزمن كميات هائلة مما تركه لنا لأقدمون والسابقون من التراث الحضاري والثقافي ,لايمكن بأي حال من الاحوال تقدير حجمه اليوم ,مما يجمع الشعوب كجماعات انسانية متعددة المنابع الحضارية والثقافية ,هي تلك النظرة المقدسة الى ذلك التراث .

ان أرث العصور السالفة هو ذلك الكنز من المخطوطات والكتب الثمينة ,الذي يهمنا أن نعرف بأي طرق بدا من الضياع والنهب حتى الرعاية, وصل الى هذه الاماكن وصار في متناول الجميع, وترتيب هذه الثروة العلمية الى انتشار المكتبات والمتاحف ودور الأرشيف

لقد تباينت الرؤى التاريخية بتباين أدوار التوثيق فانقسمت تبعا لذلك, التقسيمات الخاصة بالعصور التاريخية منذ التاريخ القديم وصولا الى التاريخ المعاصر, والواقع أن هذا التقسيم للتاريخ الذي يعتمد على أحداث تاريخية محددة قد يصلح لمنطقة محددة, ولكنه لا يصلح لمنطقة أخرى ,وتأسيسا على ذلك نرى ان التطور الحضاري هو الاصلح في تحديد المراحل التاريخية ,حيث تتميز كل مرحلة بطابع حصاري معين, ولما كانت الحضارة هي من أنتاج الفكر الانساني وتطوره ,وان هذا الفكر مدون وموثق في المصادر التاريخية المختلفة ,من النقوش و الصور والرسوم ,وأحجار ومعادن وألواح طينية ,وتماثيل وفخاريات متنوعة وكتب مدونة ووثائق محفوظة, وأفلام وأشرطة تسجيل أقراص ممغنطة ,وغيرها من وسائل ,لذلك فان اعتماد شكل التوثيق لحضارة العصر هو الأفضل في تحديد مراحل التاريخ ,والتي يمكن ان نحددها على وفق وسائل توثيقها بالمرحل الاتية:

١- الوثيقة المادية غير المكتوبة - حضارة الحجر والمعادن أو عصر ما قبل الكتابة

ان تدوين وتفسير هذه العصور هو من أصعب المهام التي يواجها الباحث في هذه المرحلة ,فليست بين يديه صور جاهزة وأفكار مدونه كي يستخرج منها تاريخ تلك الحقبة ,بل كل ما لديه رموز غامضة ومواد جامدة لأشيء فيها يوحي بمعلومة مباشرة وهذا الامر يتطلب

من الباحث المؤرخ جهدا استثنائيا كي يستنطق تلك المخلفات المهمة فيفكك رموزها ويفهم لغتها حتى يستخرج منها الافكار عن الماضي استخراجا ,فالمكتشفات الإثارية من الفخاريات والرسوم وادوات حجرية أو معدنية وكهوف وهياكل عظيمة ,ما هي الا مواد لا يمكن أن تكون ذات قيمة للإنسان العادي ولكنها بالنسبة للمؤرخ أو الباحث في تاريخ الحضارة القديمة ثروة لا تقدر بثمن .فمن هذه المخلفات الصدئة أو المهشمة يستطيع التعرف على العصر الذي تعود الية والى الحضارات التي تنتني اليها ,أي شعب استخدمها ,وأسماء ملوكه وحكامه وأعمالهم وقوانينهم وحملاتهم العسكرية وهي بذلك تؤدي دورا وثائقيا يرتقي الى مستوى الشريط المصور أو المسجل أو الممغنط في أيامنا هذه .

٢ - الوثيقة المنقوشة - حضارة الكتابة على الطين والبردي والجلود.

عد المؤرخون والأثريون اكتشاف الكتابة المرحلة الفاصلة بين مرحلتين حضاريتين ,وهما: العصور الحجرية أو عصور ما قبل التاريخ ,وعصور التاريخية .وكان الانسان العراقي القديم أول من اخترع الكتابة على الرقم و الألواح الطينية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد, حيث عرفت الكتابة الصورية في حدود (٣٥٠٠ ق.م) ,كما ظهرت بوادر الكتابة بالمقاطع الصغيرة والحروف في الألف الثالثة قبل الميلاد ,وكانت نتيجة تحول العلامات الصورية الى حروف ومقاطع أن تقلصت من (٢٠٠٠)علامة تقريبا الى (٥٥٠) علامة مسمارية تقريبا ,فأصبح الخط السومري بذلك خطا سهل التعلم ,فانتشر في وادي الرافدين من ثم الى غرب فارس ومنطقة الخليج العربي وسهول سورية ,وأصبحت اللغات الأكادية والبابلية والخط السومري معروفة لدى العالم القديم المتحضر.

يقول الأستاذ فؤاد قزانجي في كتابه (المكتبات في العراق)ان وادي الرافدين بقي يعتمد على هذه اللغات في تسجيل تاريخه وأصول معارفه ,حتى بعيد غزو الاسكندر لبابل في عام ٣٣٣ق.م ,أما في مصر فقد كانت الهيروغليفية هي لغة الكتابة والتدوين ايضا حتى قيام دولة البطالمة هناك, حيث حلت اللغة اليونانية القديمة محلها.

ويخلص ديورانت الى القول : ان الكتابة أروع ما خلقة السومريين, ويبدو هذا الفن عندهم فنا عظيما صالحا للتعبير عن الأفكار المعقدة في التجارة والشعر والدين , وكانت النقوش الحجرية هي أقدم ما عثر علية من النقوش , ويرجع عهدها الى سنة ٣٦٠٠ق.م .وتبدأ الألواح الطينية بالظهور حوالي ٣٢٠٠ق.م .,أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمواد السريعة الزوال على الورق السريع العطب والقصير الأجل ,بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن اله حادة كالإسفين ,فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة أن يحتفظوا بهذه السجلات ويدونوا العقود والمشارطات ,ويكتبوا الوثائق الرسمية ,ويسجلوا الممتلكات والاحكام القضائية والبيوع ويخلقوا من هذه كلها حضارة لمى يكن القلم فيها أقل قوة من السيف .وكانت نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية ,أما بنسبة للكتابة المصرية القديمة فقد ظلت مجهولة لعصور متتالية ، حتى تمكن العالم الفرنسي شمبليون بعد مثابرة وصبر طويل في حل رموز الكتابة الهيروغليفية .

ويرى ديورانت أن كتابة التاريخ في مصر قديمة قدم التاريخ ، بل أن ملوك عصر ما قبل الاسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم . وكان المؤرخون الرسميون

يصحبون الملوك في حملاتهم ، ولكنهم لا يدونون هزائمهم ، بل يسجلون أو يخترعون من عندهم تفاصيل انتصاراتهم لأن كتابة التأريخ قد أضحت حتى ذلك العهد البعيد شيئاً للزينه والتجميل ، وأخذ العلماء المصريون اعتباراً من عام ٢٥٠٠ ق.م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ويؤرخون السنين بحكمهم ويذكرون الحوادث المهمة في كل حكم وفي كل عام. لهذا اصبحت هذه الوثائق تواريخ بحق تفيض بالعواطف الوطنية .

٣- الوثيقة الورقية – حضارة الورق والطباعة :-

في سنة ١٠٥م تمكن رجل صيني يدعى **تساو لون** من اختراع الورق ، هذه المادة السحرية البسيطة التي غيرت حياة العالم وثقافته وأصبحت الوسيلة الفعالة في نشر الافكار والثقافات بين الشعوب والامم ، وأحدثت نقلة نوعية في تدوين الوثائق ومن ثم في تسيير الكتابة التاريخية وتفسير التاريخ ، ليس ذلك فقط بل جعلت من تأليف الكتب ونسخها ونشرها أمراً ممكناً وأكثر يسراً من ذي قبل ، وأصبح في متناول اليد الحصول على نسخ متعددة من تلك الكتب ونقلها من مكان الى آخر ومن بلد الى بلد ، والاكثر من ذلك أصبح الورق هو الوسيلة التي تكتب بها المراسلات الرسمية ، وكذلك المعاهدات والبيوع والعقود والاوامر العليا وما الى ذلك ، وبالتالي أصبحت امكانية المحافظة على تلك الوثائق والمعاهدات والاوامر وغيرها ميسورة لأطول فترة ممكنة .

الا أن هذا الاختراع لم يجر تداوله على نطاق واسع في العلم آنذاك حتى ظهور الاسلام وانتشاره شرقا وغربا ,حيث تعلم المسلمون صناعة الورق من الاسرى الصينيين بعد فتح سمر قند سنة ٧٥١م, حتى أصبحت هذه الصناعة شائعة في بغداد سنة ٧٩٤م,الى الحد الذي جعل الخليفة العباسي هارون الرشيد يصدر أمرا بأن لا يكتب الناس الا في الكاغد (اي الورق) وترتب على ذلك ظهور طبقة اجتماعية جديدة سميت الورقيين لكثرة العاملين في هذه الصناعة ,وأصبح سوق الورقين في بغداد من أشهر أسواقها ,الصناعة التي أسهمت بشكل فاعل في تنشيط حركة التأليف والنشر وتدوين الوثائق السياسية والشرعية والتجارية.

٤- متغيرات جديدة في ماهية الوثيقة _الحضارة الصناعة:

مع ضهور الثورة الصناعية في أوربا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر أخذت معالم الحياة والمجتمع البشري بالتغير ,الاقتصاد والسياسة ,الطبقات والتكوين الاجتماعي ,الفكر والثقافة ,فهو عصر العلوم الحديثة وتطبيقاتها العلمية التي أطاحت بنظرية أصالة الحضارة ,وجعلت منها تراثا بشريا انسانيا مشتركا لجميع أمم الأرض ,ولم يعد فيها العلم حكرا على أمة من هذه الامم أو شعبا من شعوبها ,بل أصبح في متناول الجميع ,وهذه ميزة لم تكن موجودة في الحضارات السابقة ,وفضلا عن ذلك جعلت الحضارة الصناعية المجتمعات الانسانية أكثر اقترابا من بعضها البعض بفضل تطور وسائل النقل والمواصلات الحديثة, اصبحت المعلومات متاحة بين الشعوب لأول مرة على نطاق واسع وسريع بفضل الثورة الصناعية من خلال انتشار الصحافة واتساع نطاق النشر المعرفي نتيجة لتطور وانتشار المطابع الحديثة ذات الانتاج الواسع والسريع كما زادت الصلات بين الشعوب المختلفة بسبب تطور وسائل الاتصالات البرقية ,وانتشار استخدام الهاتف والمذياع حتى أصبح من الممكن أن نطلق على هذا العصر صفة عصر اشتراكية الحضارة الانسانية. وان كانت تبدو وكأنها ثمرة من ثمرات الثورة

الصناعية في أوربا ,الا أنها في حقيقتها ثمرة من ثمار تراكم المعرفة الانسانية وتطورها عبر العصور, بدءا من اختراع الكتابة الى الثورة الصناعية في واربا ,وفي كل هذه المراحل التاريخية المهمة كانت الوثيقة على اختلاف اشكالها هي الوعاء الذي انتقلت فيه المعارف البشرية من عصر الى عصر ,ومن أمة الى أمة.

٥_ الوثيقة الالكترونية _الحضارة الالكترونية المعاصرة

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ,وابان النصف الثاني من القرن العشرين ,دشنت الحضارة البشرية عصرا جديدا من التطور ,ذلك هو العصر الثقافة الالكترونية, والحاسوب الالي , والذرة وثورة الاتصالات الاعلامية , واكتشاف الخارطة الجينية ,فقد دخلت عناصر جديدة في ميدان التوثيق التاريخي وبالتالي تفسير التاريخ ,فلم تعد الوسائل التقليدية في خزن المعلومات ونقلها وتداولها كافية لاحتواء الانتاج الوثائقي الهائل للمعلومات ,من هذه الوسائل الاقراص الممغنطة cd , mp3,dvd, والفلاش وغيرها ,لتكون بدائل عن الوسائل القديمة ,وبذلك أصبح في الامكان حفظ ونقل وتداول النتاج الاعلامي والثقافي والفكري بطريقة سهلة ,لا تحتاج لحيز كبير لخزنها ,الامر الذي يؤكد أن العالم المعاصر دخل حضارة جديدة وعصر جديد ,يقوم على اساس التغير الهائل في وسائل حفظ وتخزين ونقل وتداول الوثائق والمعلومات.